صوبيا «الستوف» الضخمة والمتربعة وسط الغرفة الكبيرة، تنشر الدفء من دون هوادة. فوقها طنجرة ضخمة وضع فيها الثلج (تسعى العائلات البقاعية خلال فترة تجمد قساطل المياه المنزلية، لتذويب الثلج النظيف بهدف الحصول على مياه منها). إلى جانبها «مصبّ» القهوة العربية المرّة، وإبريق الزهورات، بما يحتويه من زهر البابونج و«شوشة العرنوس» والتين واللوز المجفف وإكليل الجبل والزعتر البري.

تكاد الزهورات تكون المشروب الأفضل لسهرات السمر الشتائية الباردة، كما يؤكد محمد شمص ابن بلدة بوداي. اجتمع في منزله عدد من أصحابه وجيرانه في سهرة لإبعاد شبح الملل في ظل انقطاع التيار الكهربائي وغياب وسائل التسلية الحديثة. عاد الجميع إلى تلك السهرات القديمة. «جمعات الليخة والـ14 والكنستر وحتى الباصرة» يقول شمص وهو يؤدي واجب الضيافة. انقطاع التيار الكهربائي وبطء البلديات في فتح الطرقات الفرعية للقرى والبلدات، كانا الموضوعين الأساسيين اللذين استحوذا على الأحاديث والمناقشات. «كيف لدولة تحترم نفسها أن لا تتجهّز لعاصفة عرف بقدومها قبل أسبوع، يقول حسن وهو يوزّع أوراق لعب الليخة على أصدقائه الثلاثة».

تبدأ اللعبة ويستمر النقاش حول روايات «التقصير والإهمال» وعن «الاستنسابية في فتح الطرقات وترك أحياء بكاملها محاصرة بالثلوج»، في الوقت الذي استمرت فيه «زينة» بنثر رقاع الثلج على قرى البقاع بكامله وزيادة عزلتها.

ما يخفّف من حدة النقاش بين المتسامرين، بعض الروايات والحوادث المضحكة التي واجهت بعضهم، فيما فاطمة ربة المنزل تجود على ضيوفها بما لذ وطاب من «مؤنة الضيافة» التي آثرت التفنن في جمعها بأنواعها المتعددة واللذيذة، من الفواكه المجففة التي تبدأ بالمشمش والتين، ولا تنتهي عند الزبيب بأنواعه والقضامة المالحة واللوز والجوز، وطبعاً الضيافة المحلاة التي ارتبط اسمها بالثلج أيضاً مثل «السمسميّة» و«الفستقيّة».

أبناء المنطقة، المناسبة تبدو عظيمة، عند أبناء بنت جبيل ومرجعيون، ومختلفة عن أخبار وسائل الاعلام. «المشكلة الرئيسية تتعلق في انقطاع الكهرباء والانترنت، وغير ذلك لا يبدو مهماً، طالما أن التدفئة جاهزة والمازوت رخيص». ازدادت نسبة المبيعات في جميع المحال التجارية، لكن الرابح الأكبر كان تجار المواد الغذائية وخطوط الهواتف النقالة، اضافة الى تجار الخرضوات الذين ازداد عدد زبائنهم بسبب الجليد الذي أدى الى انفجار قساطل المياه في عدد كبير من المنازل.

بالعودة إلى السنوات البعيدة الماضية. تغير كل شيء تقريباً بتغير نمط الحياة. لم تكن أنباء وصول العاصفة، الى تلك التلال العاملية الحدودية المنخفضة نسبياً عن سطح البحر (حوالى 700 متر)، تستقبل بفرح أو دعابة أو رغبة، كما يحصل اليوم. ولم تكن مصادر هذه الأنباء مراصد علمية متخصصة، بل كان المزارعون من كبار السن هم الذين يتنبأون بوصولها، قبل غيرهم، وعندما تشتد العاصفة، كما حصل، الأسبوع الفائت، يهجر الكثيرون من أبناء القرية منازلهم المسقوفة من الطين، الى مسجد البلدة الذي كان مفروشاً بحصر البابير، بعد أن يحضروا ما جمعوه من المونة، خوفاً من انهيار منازلهم عليهم. يتذكر عدنان الأمين (65 سنة) كيف أن عاصفة فاجأت أبناء بلدته شقرا، فاضطر زوار والده من بلدة حولا المجاورة إلى المكوث 7 أيام متتالية في منزله، بسبب تراكم الثلوج. القصة تعود الى ستينيات القرن الماضي «عندما كان الأهالي يعتمدون في التدفئة على الحطب وزبل الأبقار المجفف، فلم تكن الصوبا قد دخلت بيوت الأهالي، حتى أن أول صوبا من المازوت اشتراها أحد أبناء البلدة عام 1958 كانت محط أنظار الأهالي وموضع حديثهم لفترة طويلة».

بحلول العاصفة كان أبناء المنطقة يجتمعون في المنازل الأكثر أماناً، يحضرون «الخبز والبقعات والدبس والتين اليابس ويتعاونون معاً على طبخ العوامة». فالمحال التجارية لم تكن منتشرة بعد في القرى، وعلى من يفقد جزءاً من مؤونته أن يقصد سوق بنت جبيل أو سوق مرجعيون، أو مقايضة جاره بما يختزنه من الطحين أو البيض أو الحبوب. من يملك الحطب هم الكادحون فقط، أما «الكسالى» فتكون العاصفة الثلجية نكبة عليهم كونهم لم يجمعوا الحطب الكافي، أو يجففوا «زبل» الأبقار لاستخدامه في التدفئة.

فرصة لرزق عابر (مروان بوحيدر)

الله... «يقطع حدا» في الثلج

آمال خليل

شمس «الويك أند» الفائت، كانت فخاً لسياح الثلج في الجنوب. علي ومهى وغيرهما تحدوا العاصفة الثلجية واصطحبوا أولادهم في نزهة قبل أن يذوب الثلج ويعودوا إلى أشغالهم ومدارسهم. لكن النهاية لم تكن كما توقعوا. من منزلهما في كفر صير (قضاء النبطية)، استقلت أسرة علي السيارة وانطلقوا ظهر الجمعة باتجاه جزين. لم يجذبهم ثلج إقليم التفاح، بل نشدوا سماكته في بلدات جزين ومروجها التي تتحول عادة إلى ملاعب ثلجية. وصلوا إلى طريق حيطورة - سنيا، عندما اكفهرت السماء فجأة وبدأ هطول الثلج. عاند علي الطبيعة.

بصعوبة مشت السيارة إلى الأمام حتى لم تعد قادرة على اقتحام سماكة الثلج الذي غطى ملامح الطريق. وجدت الأسرة نفسها في سنيا كما تشير اليافطة. خرجوا من السيارة وهاموا يطرقون أبواب البيوت القريبة في البلدة التي يسكن معظم سكانها خارجها. قادتهم الخطى إلى سيدة تقف أمام باب منزلها. سألتها مهى: «هل تستقبلوننا عندكم حتى نطلب مساعدة الدفاع المدني لرفع السيارة؟». لم تكمل سؤالها حتى صارت مع زوجها وولديها في منزل وسام بولس. الصوبيا على الحطب تتوسط غرفة الجلوس وتنتظر الضيوف البردانين. وسام وزوجته رامونا بديا في دقائق قليلة كأنهما صديقان قديمان لعلي ومهى. الولدان وجدا ضالتهما مع أطفال البيت الثلاثة. رامونا شرعت بتحضير الطعام من حواضر البيت.

أهالي سنيا كجاراتها في قضاء جزين، يعتمدون في تأمين حاجاتهم على مدينة جزين. لكن الثلج قطع الطريق إليها كما قطع الكهرباء. ذلك الانقطاع دفع برامونا إلى تحضير الحبوب التي يمونونها «للقطعة». على المائدة أكلات بلدية من حقل أم وسام: الفاصوليا الحمراء ليست «يخنة» مع اللحم أو الدجاج، بل سلطة ساخنة وشرائح البطاطا وحبات الحمص اليابس المشوية في الصوبيا... أهل البيت «عملوا الواجب» مع ضيوفهم الغرباء الذين لم يلبّ الدفاع المدني نداء استغاثتهم. أمضوا الليلة بالقرب من صوبيا آل بولس. في اليوم التالي، أوصلهم وسام إلى منزلهم فيما بقيت السيارة بحراسة أهل سنيا حتى يوم الاثنين عندما توقف هطول الثلج وبدأ بالذوبان.

لاحقاً، استضافت سنيا عائلة من آل البابا من صيدا، قادها السحر الأبيض إلى جزين قبل أن تنقشع السماء تماماً. تقطعت بهم السبل لكن وجدوا بيتاً يضمهم من الصقيع. بيوت سنيا وجاراتها في بصليا وحيطورة وكفرحونة وبتدين اللقش وروم وريمات وحيداب... أصبحت كافيتيريا ومحطة للاستراحة والاستقبال لمئات الذين توافدوا إلى المنطقة في عطلة الويك أند على نية الثلج.